تفاعل الثقافات مبدأ إسلامى

obeikan.com

obeikan.com

تفاعل الثقافات
مبدأ إسلامى

تشغل قضية الحرية حيزاً كبيراً فى الفكر الإنسانى ، إذ مازالت تتصدر قائمة مبادئ كل مذهب فكرى ، على أساس أن حرية الإنسان يجب أن يكفلها كل نظام يريد لنفسه البقاء ، وتحافظ عليها كل أيديولوجية تنشد الانتشار بين الناس ، ويدعو إليها كل المفكرين المشتغلين بقضايا الإنسان والمجتمع ؛ ذلك أن الحرية هى إحدى الدعائم الرئيسية التى يقوم عليها بناء الإنسان بوصفه عضواً صالحاً فى مجتمع قوى متماسك ؛ فإن لم توجد فى المجتمع البشرى ضعف أفراده ، وانحلت عقدة التماسك فيما بينهم ؛ فتناثروا في مهب الريح ، لا يجمعهم هدف ، ولا يحكمهم مبدأ يرون فيه كيانهم ووجودهم .

ولهذا قدس الإسلام الحرية، فدعا إلى كفالتها، ولو أدي ذلك إلى عدم الاعتراف به ديناً ، يقول الله تعالى :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة ٢٥٦]

ويقول:

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف ٢٩]

وقوله:

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس ٩٩]

بهذه الحرية خرج المسلمون من الجزيرة العربية يحملون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وحولهما ما أنتجته عقول المسلمين الذين تربوا في مدرسة النبوة ، فدعوا أهل البلاد التي فتحها الله عليهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم يمارسوا معهم إرهاباً فكرياً ، ولا ضغطاً نفسياً ، كما لم يستعملوا معهم القوة لحملهم على اعتناق الإسلام ، بل عرضوه عليهم ، ودخلوا في حوار فكري

معهم كان طرفاه : مبادئ الإسلام وأحكامه وتشريعاته من جانب ، وعقائد من يدعون إلى الدخول في الإسلام من جانب آخر. ولم يقتصر الأمر على مناقشة من بقى علي دينه لإقناعه بأحقية الدخول في الإسلام ، بل اتسعت دائرة النقاش فشملت من اعتنق الإسلام من سكان الدول المفتوحة ، ذلك أن المسلمين الجدد دخلوا في دين الله بأفكارهم الفلسفية وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ؛ إذ لم تختف هذه الظواهر عقب الفتح مباشرة — ولو حدث لكان ذلك نقضاً لسنة التطور والتحرر الفكري في المجتمعات الإنسانية — بل كانت وقوداً للمعارك الفكرية التي اشتعلت في المجتمع الإسلامي ، وظلت نارها متأججة شرقاً وغرباً عدة قرون ، وما ذاك إلا لأن المسلمين لم يضيقوا ذرعاً بالأفكار الأجنبية ، بل ناقشوا، وحاوروا أصحابها، فتطلب منهم ذلك دراسة تلك الحضارات، فلم يرفض العقل الإسلامي معطيات غيره الفكرية، وفي الوقت نفسه لم يقبلها كلية ، بل ناقشها وحاورها، ومَحَّصَها وعرضها على مقاييسه ، ونظر إليها من خلال منظاره ، فما اتفق مع عقائده قبله بدون تردد ، وما لم يتصادم مع مفهوم كتابه الكريم أفسح له مجالاً في ساحته الفكرية ، وما لاحظ فيه عنصراً غير مقبول إسلامياً ، فإن استطاع تعديله عَدَّلَه، وإن لم يكن في الإمكان تحويره ليلائم الروح الإسلامية رفضه ، وبهذا استفاد العقل الإسلامي إلى أقصى حد من خبرات الآخرين في بناء حضارته ، فقبل كل ما أنتجه العقل الإنساني بشرط أن ينسجم بشكل أو بآخر مع نسيج حضارته المنبثق من الإسلام ، والمتناغم في إيقاعه وحركته مع نغمات الشريعة الإسلامية .

فـ "كل الحضارات العالمية: يونانية ، ورومانية ، وبيزنطية ، وهللينية ، وفارسية ، وهندية ، وتركية ، وصينية ، ...وتراث الجماعات والشعوب التي عاشت في المنطقة : آرامية ، ونبطية ، وقبطية ، وفينيقية...الخ كانت جميعاً بمثابة حقول مفتوحة ، جال في أطرافها العقل الإسلامي ، فأخذ ورفض ، وانتقى ومَحَّصَ ، واختبر وعزل ، واستبعد وفَصَّلَ ، وعرف ، وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة ، ما الذي ينسجم ونسقه الصاعد ، ويزيده دماً وحياة ، وما الذي يحمل جراثيم المرض والهزال ، والدم الأزرق الفاسد . فكان يعرف جيداً كيف يرفض هذا ويأخذ ذاك".

لم ينقل المسلمون هذه الحضارات إلى مجتمعهم نقلاً آلياً ، فهم لم يقتبسوها نصوصاً مرسومة محددة ، بل درسوها دراسة واعية ، وفهموها فهماً دقيقاً ، وهضموا مسائلها وقضاياها ، ثم

طعموها بما عندهم ، فخرجت ثوباً قشيباً يختلف عما كان لدى الآخرين ، فاكتسبت من المعالم الإسلامية ما حَوَّلها إلى صورة جديدة ، وكان لهذا أثره الإيجابي ليس على المستوى المحلي فحسب ، بل على المستوى العالمي ؛ إذ عبرت الحضارة الإسلامية بهذا الإنجاز نطاق الحضارات كلها ، وأدَّت عملاً لم تقم به أي حضارة سابقة ، لا من حيث المحافظة على حضارات السابقين فحسب ، بل من جانب تطويرها وتجديدها أيضاً وإضافة الجديد إليها ، فحمت بذلك التراث الحضاري القديم ، وأسهمت في إضافة الجديد إلى صرح الحضارة الإنسانية بما زاده ارتفاعاً وعلواً ، ورسوخاً وشموخاً ، وبهاءً وصفاءً .

يقول: "لويس يونج": "وهكذا أصبح المسلمون في المناطق الجديدة لامبراطوريتهم على صلة تامة بحضارة واسعة ، تضم بين ظهرانيها أدباً واسعاً مكتوباً باليونانية والسريانية والبهلوية إلى جانب استيعاب لعلوم لم يكن لعرب الجاهلية أن يعرفوها.... لقد صبت جداول كثيرة في نهر الحضارة الإسلامية، ولعل أشدها تأثيراً رافد الحضارة الهللينية ، ثم الحضارة الفارسية التي أثرت في الفكر السياسي والعادات الاجتماعية والحضارة الهندية التي أسهمت في علوم الطب والفلك ، وخاصة في الرياضيات حيث أخذ العرب الأرقام الهندية . وقد أخذ العرب بعض التنظيمات الإدارية والسياسية التي كانت قائمة في البلدان المفتوحة ، مثل "ديوان الحسبة" الذي هو امتداد لمؤسسة بيزنطية ، وفكرة "المصلحة العامة" التي هي امتداد لـــ " Utlitas Publicas" في التشريع الروماني ، كما أخذوا بعض المناصب السياسية مثل "الوزير" من الفرس" .

ازدهار الفكر في المجال الديني

كان لدعوة الإسلام إلى العلم في كثير من آيات القرآن الكريم أثر كبير في توجيه المسلمين إلى السعي في تحصيل المعرفة بكل الطرق ، ومن أي مصدر، فقادوا بذلك حركة عقلية في صدر الإسلام على كل المستويات الثقافية .

ففي الجانب الديني :

بذلوا جهداً كبيراً في شرح قضايا الإسلام ، متخذين المصادر الأصلية أساساً لبناء هذا الجانب العلمي ، فأدت هذه الحركة إلى إنشاء مدارس عدة لخدمة قضايا الدين .

ومن أهم هذه المدارس:

المدارس الفقهية

حيث كان مجهود العلماء فيها منحصراً في استنباط الأحكام الدينية من القرآن الكريم والسنة النبوية ، تلك الأحكام التي تنظم سلوك المسلم نحو خالقه في العبادات ، ونحو أخيه المسلم في المعاملات ، أو معالجة لأحداث التي كانت تظهر باستمرار في المجتمع الإسلامي ، ولم يكن يعرف لها أحكام سابقة ، فكان الجهد في هذا المجال متجهاً إلى القياس ، أو البحث عن أقرب الأحكام إليها ، أو تقرير حكم لها تحت إطار الروح الإسلامية .

مدارس الحديث وعلومه

حيث بذل المسلمون جهوداً جبارة ، ليس لها نظير في المجتمعات البشرية ، فرسموا قواعد لقبول الحديث ورفضه، كما تتبعوا مسانيد الأحاديث لتنقيتها من الدخيل والمكذوب ، والمدسوس.

مدارس التفسير

وفيها عنى العلماء بكتاب الله شرحاً وتفسيراً وتوضيحاً لآياته ، وبياناً وعرضاً لأحكامه ووصاياه ، وتفصيلاً لمجمله ، وتأويلا لمتشابهه .

مدارس علم الكلام

حيث بذل العلماء الكثير من الجهد للدفاع عن قضايا الدين ودحر العقائد المناوئة ، وبيان اضمحلالها وضلالها ، وحماية المجتمع من الأفكار الدخيلة التي حاول أصحابها أن ينشروها في المجتمع الإسلامي .

ولم تقتصر الحركة الفكرية في صدر الإسلام على هذا الجانب الديني ، بل خاضت كل المجالات وفتحت أبوابها لكل الثقافات التي كانت موجودة في ذلك العصر، فنهلت من كل جانب ، وطوعت كل ما أخذته ، واستقبلته من هذه الثقافات لروحها ، فتكيف معها فاستوعبته وهضمته .

يقول لويس يونج:

"لقد فتح العرب أبوابهم على اتساعها لاستيعاب المعارف والثقافات القديمة من يونانية وغيرها، مما قاد إلى نهضة كبرى في مجال الترجمة... ولعل من أهم دوافع الترجمة : هو حث الإسلام على المعرفة ودعوته لتلقى العلم ، وجعل ذلك أمنية عظمى في الحياة . وقد تعرف المسلمون من خلال الترجمة على جوهر الفلسفة القديمة والطب والعلوم الطبيعية اليونانية... وهكذا كان مجال الترجمة واسعاً حتى إن الكثير من الأعمال اليونانية وصلت إلى أوروبا عن طريق الترجمة العربية فقط ، لأن النسخ اليونانية الأصلية فقدت....**إن تطور المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم".**

وهكذا قدم المسلمون خدمة كبرى للإنسانية في جميع مجالات الحياة :

ففي المجال الديني :

قدموا لهم عقيدة إلهية نقية صافية ، لم تدخلها خرافات العقل البشري ، ولا أوهام وترهات الكهنة ورجال الدين الذين ضلوا عن سواء السبيل وأضلوا كثيراً من الناس فأوهموهم بضلالات ، شلت عقولهم عن البحث ، وأعجزت تفكيرهم عن الإبداع .

وفي المجال الإنساني :

حطموا الحواجز التي أقامها رجال الدين بين الإنسان وبين مجالات العلوم الإنسانية ، ففُتِحَت أبواب العلوم على مصراعيها لكل باحث ، ورُفِعَت الوصاية الدينية عنه ، فأصبح يتمتع بحرية تامة في البحث والتنقيب في آفاق الكون كله بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وقضوا على

الحواجز النفسية بين الشعوب في المجال العلمي ، وكان شغفهم بتَعَلُّم الثقافات الأجنبية وترجمتها إلى اللغة العربية دليلاً واضحاً على نظرتهم العلمية لنتاج العقل الإنساني ، وبياناً أكيداً على أن الإسلام أباح للمسلم أن يأخذ العلم حيث يجده ، فلا يكون اختلاف البيئة أو العقيدة سبباً في الإعراض عنه ، ما دام لا يجر وراءه ضرراً للإسلام ، أو ضعفاً وهواناً للمسلمين .

وبناء على حث الإسلام على استخدام العقل ، لا توجد حقيقة دينية فيه مخالفة للحقائق العقلية ، مما جعله صالحاً لكل الناس على وجه الأرض ، لأنه يخاطب العقل الذي يشترك فيه جميع البشر ، فليس في القرآن الكريم حقائق تختص بجنس دون آخر ، وتناسب قوماً دون غيرهم من أقوام الأرض ، فالكل مشترك في الأداة التي يتوجه إليها القرآن الكريم بأوامر الله ونواهيه ، ألا وهي **"العقل"** .

obeikan.com